

## ١٨- القُدس

نشرها الله على تلال خمس، وقدس منها جبل الزيتون ومكان الحرم. وبذلك هيأها لأن يدخلها المسيح متواضعاً، ويُقبض عليه ويصلب في ربوعها ثم يصعد الى السماء. كما أعدها للإسراء، على ما جاء في كتابه العزيز: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾.

تاريخها متوغل في القدم، فهي هناك على تلك التلال، تنتظر الفداء والإسراء، منذ مئات السنين. تروي القصة تلو القصة، والحادثة تلو الحادثة، وتقلب الصفحة بعد الصفحة، وعينها تترقب وتنتظر حتى تحقق لها ما تحقق. ولذلك ما أصدق ما قاله فيها ابنها البار المقدسي الجغرافي صاحب أحسن التقاسيم وهو: «ليس في مدائن الكور أكبر منها... لا شديدة البرد، وليس بها حر وقل ما يقع بها ثلج. وسألني القاضي أبو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت: سحسج لا حر ولا برد شديد. قال: هذا صفة الجنة. بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه ولا أتقن من بنائها ولا أعف من أهلها ولا أطيب من العيش بها ولا أنظف من أسواقها ولا أكبر من مسجدها ولا أكثر من مشاهدتها. عنبها خطير، وليس لمعنتها نظير. وفيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب»<sup>(١)</sup>.

ليس غريباً ان يتعصب لها ابناؤها، فالولاء للمدينة حق لها وواجب على الأبناء. ولكن القدس تستهوي الآخرين فيقعون في شرك غرامها وقلما يحبون التخلي عنها، ولذلك فكم كان المهم شديداً لما أرغموا على ذلك.

ولعل أطرف ما وصل إلينا عن دفاع الابن عن مدينته هذه الحكاية التي رواها

المقدسي قال:

«وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بهرام بالبصرة فجرى ذكر مصر الى ان سُئلت: أي بلد أجل؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيتها أطيب؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيتها أفضل؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيتها أحسن؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيتها أكبر؟ قلت: بلدنا. فتعجب أهل المجلس من ذلك وقيل: أنت رجل محصل وقد ادّعت ما لا يقبل منك، وما مثلك إلا كصاحب الناقة مع الحجّاج. قلت: أما قولي أجل فلأنها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها، ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه الى نعمة الدنيا وجدها. واما طيب الهواء فإنه لا سمّ لبردها ولا

أذى لحرّها . واما الحسن فلا ترى أحسن من بنيانها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها . واما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الاغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة كالاترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز . واما الفضل فلأنها عرصة القيامة ومنها المحشر وإليها المنشر . وإنما فضّلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي ﷺ ويوم القيامة تزفان إليها فتحوي الفضل كله . واما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها ، فأى أرض أوسع منها؟ .. فاستحسنوا ذلك وأقروا به»<sup>(٢)</sup> .

وظل المكان الذي صلب فيه المسيح مجهولاً حتى القرن الرابع للميلاد . ثم شخصت هيلانة ام قسطنطين لزيارة بيت المقدس . فسألت عن موضع الصليب فأخبرها مقاريوس الأسقف ان اليهود أهالوا عليه التراب والزبل . ثم استخرجت ثلاثة من الخشب وسألت: أيتها خشبة المسيح؟ فقال لها الأسقف: علامتها ان الميت يحيا بمسيحها فصدقت ذلك بتجربتها . واتخذ النصارى ذلك اليوم عيداً لوجود الصليب . وبنت على الموضوع كنيسة القيامة وأمرت مقاريوس الأسقف ببناء الكنائس»<sup>(٣)</sup> .

واحتفل المسيحيون بأعيادهم المختلفة في القدس منذ ذلك الوقت . وها نحن نعتز على وصف لفيض النور في اليوم السابق لعيد الفصح المقدس تركه لنا برنارد الحكيم الذي زار القدس في القرن الثالث (التاسع) . قال برنارد: «يجد الداخل الى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه . فاذا كان صباح السبت السابق ليوم الفصح بدئت الصلاة في الصباح ، حتى اذا تمت ، أنشد الكل بصوت رخيم : استجب يا رب ، واستمروا في ذلك حتى ينزل الملاك وينير القناديل المذكورة وعندها يتقدم البطريرك ويعطي لكل مطران حصته من هذا النور المقدس ، ثم يسمح للشعب أن ينير كل قنديله»<sup>(٤)</sup> . ولما فتح العرب القدس جاء عمر بنفسه يتسلمها . وقد كتب لأهلها . وكانت تسمى ايلياء . عهداً هذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان :

«أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . سقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما تعطي أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . فمن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم .

«وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

«كتب سنة ١٥ لهجرة [٦٣٦].

«شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان»<sup>(٥)</sup>.

وفي أيام عمر وضعت أسس المسجد الأقصى الذي وسع فيما بعد وأقيمت قبة الصخرة الى جانبه. وللمقدسي وصف بديع لقبة الصخرة إذ يقول: «فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتألأت المنطقة ورأيت شيئاً عجيباً. وعلى الجملة لم أر في الاسلام ولا سمعت ان في الشرك مثل هذه القبة»<sup>(٦)</sup>.

في أواسط القرن الخامس (الحادي عشر) زار ديار الشام ناصري خسرو الرحالة الفارسي. وكانت القدس من الأماكن التي اهتم بها. وترك ناصري خسرو لنا وصفاً جميلاً للمدينة والصخرة. فهو يقول عن وصوله الى المدينة المقدسة: «في الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ [١٦ مارس ١٠٤٧] بلغنا بيت المقدس. وكان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية، وطوال رحلتنا لم نقر في مكان قط ولا وجدنا راحة كاملة. وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس القدس. ويذهب الى القدس في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب الى مكة من أهل هذه الولايات، فيتوجه الى الموقف يضحي ضحية العيد كما هي العادة. ويحضر هناك لتأدية السنة، في بعض السنين، أكثر من عشرين ألف شخص، في أوائل ذي الحجة، ومعهم أبناؤهم. كذلك يأتي لزيارة بيت المقدس، من ديار الروم، كثير من النصارى ... وذلك لزيارة الكنيسة ... هناك»<sup>(٧)</sup>.

اما المدينة فقد قال عنها ناصري خسرو: «هي مدينة مشيدة على قمة الجبل، ليس بها ماء غير الأمطار ورساتيقها ذات عيون، وأما المدينة فليس بها عين فإنها على رأس صخر. وهي مدينة كبيرة كان بها، في ذلك الوقت، عشرون ألف رجل، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة، وقد سووا الجهات الجبلية والمرتفعات، وجعلوها مسطحة. بحيث تغسل الارض كلها وتنظف حين تنزل الامطار. وفي المدينة صناعات كثيرون، لكل جماعة منهم سوق خاصة، والجامع شرقي المدينة وسوره هو سورها الشرقي. وبعد الجامع سهل كبير مستو يسمى «الساهرة» يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا، يحضر إليه خلق كثيرون من أطراف العالم ويقىمون به حتى يموتوا فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد. اللهم عفوك ورحمتك بعبيدك ذلك اليوم يا رب العالمين»<sup>(٨)</sup>.

والصخرة، التي تقوم القبة فوقها، يقول عنها الرحالة الفارسي: «والصخرة حجر أزرق لونه، لم يطأها أحد برجله أبداً، وفي ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض، كأن

انساناً سار عليها فبذت آثار أصابع قدميه فيها كما تبدو على الطين الطري، وقد بقيت عليها آثار سبع أقدام. وسمعت ان ابراهيم عليه السلام كان هناك، وكان اسماعيل طفلاً فمشى عليها وهذه هي آثار أقدامه. ويقام في بيت الصخرة جماعة من المجاورين والعابدين، وقد زينت أرضه بالسجاد الجميل من الحرير وغيره. وفي وسطه قنديل من الفضة، معلق بسلسلة فضية فوق الصخرة. وهناك قناديل كثيرة من فضة، كتب عليها وزنها، أمر بصنعها سلطان مصر. وقد قدرت ما هناك من الفضة بألف من «ورأيت هناك أيضاً شمعة كبيرة جداً طولها سبع أذرع وقطرها ثلاثة أشبار، ولونها كالكافور الزباجي وشمعها مخلوط بالعنبر. ويقال إن سلطان مصر يرسل الى هناك كل سنة كثيراً من الشمع، منه هذه الشمعة الكبيرة، ويكتب عليها اسمه بالذهب»<sup>(٩)</sup>.

في اواخر القرن الخامس (الحادي عشر) احتل الافرنج القدس التي ظلت في ايديهم الى ان استرجعها صلاح الدين سنة ٥٨٢ [١١٨٧]، أي بعد قرابة قرن. لكن الدولة الايوبية التي انشأها صلاح الدين في ديار الشام ومصر لم تحتفظ بقوتها بسبب اختلاف أولاد صلاح الدين على الحكم. وعاد الامر الى مثل ذلك عقب وفاة الملك العادل. لذلك لما آل الامر الى الملك الكامل محمد رأى ان يقبل عرضاً من الامبراطور فريدريك على عقد هدنة بين الرجلين. وكانت غاية الملك الكامل من ذلك تجنب مصر حملة صليبية. وتم الصلح سنة ٦٢٢ [١٢٢٥]، وكان الامبراطور قد وصل الى فلسطين. وكانت الشروط ان يتسلم فريدريك القدس وبيت لحم والناصرية ويأفأ، على ان يبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وقرى القدس بأيدي الملك الكامل.

«وأعقب الامبراطور فريدريك هذه الهدنة بزيارة المسجد الأقصى، باذن من السلطان الكامل، صحبة شمس الدين قاضي نابلس. وطاف فريدريك بمزارات المسجد الأقصى، مستفسراً عنها في لسان عربي واضح. ولم يكن ذلك غريباً على امبراطور أجاد الكتابة والكلام في ست لغات أخرى غير اللغة العربية، كما لم يكن غريباً على الحاضرين من المسلمين أن يسمعه وهو يتكلم في غير لكنة ظاهرة، فإن كثيراً من الصليبيين الأوروبيين المقيمين بالشام كانوا يتكلمون العربية، منذ استقر مقامهم بالشرق. وبات الامبراطور فريدريك ليلتين بدار القاضي شمس الدين ببيت المقدس، ثم رحل إلى عكا، بعد أن توج نفسه بكنيسة القيامة ملكاً على مملكة بيت المقدس»<sup>(١٠)</sup>.

وقد خلف لنا سبط بن الجوزي صاحب «مرآة الزمان» اخبار هذه الزيارة التي ننقل طرفاً منها للقراء. قال سبط بن الجوزي:

«وفيها [أي سنة ١٢٢٤/٦٢١] دخل الانبرور الى القدس... وجرى (كذا) له عجائب، وحكى صورة الحال قوام الصخرة، قالوا: ونظر (الانبرور) الى الكتابة التي في

القبّة، وقرأ نصّها، وهو (قد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين)، فقال: ومن هم المشركون؟ وقال للقوّام: هذه الشبّاك التي على أبواب الصخرة من أجل أيش؟ قالوا له: لثلاث دخلها العصافير. قالوا: وكان الأنبرور أشقر، في عينيه ضعف، لو كان عبداً ما ساوى مائتي دينار. قالوا والظاهر من كلامه أنه كان دهرياً، وإنما كان يتلاعب بالنصرانية. قالوا: وكان السلطان الكامل قد تقدم إلى القاضي شمس الدين قاضي نابلس أن يأمر المؤذنين - ما دام الأنبرور في القدس - لا تصعدوا المنائر، ولا تؤذّنوا في الحرم. فأنسى القاضي أن يعلم المؤذنين، وصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر، والأنبرور نازل في دار القاضي، فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى... فلما طلع الفجر استدعى شمس الدين قاضي نابلس القاضي عبد الكريم، وقال له: أيش عملت؟ السلطان رسم كذا وكذا، قال: فما عرفتي، والتوبة. فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنة، فلما طلع الفجر استدعى الأنبرور القاضي، وكان قد دخل القدس في خدمته، وهو الذي سلم إليه القدس، فقال له: يا قاضي! أين ذاك الرجل الذي طلع البارحة المنارة؟ .. فعرفه أن السلطان أوصاه. فقال الأنبرور: أخطأت يا قاضي، تغيّرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي، فلو كنتم عندي في بلادي هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله! لا تفعلوا؛ ثم فرّق الأنبرور في القوّام والمؤذنين والمجاورين جملة، أعطى كل واحد منهم عشرة دنانير، ولم يقيم [يقم] بالقدس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا<sup>(١١)</sup>.

انتهى الأمر بالصليبيين أن أخرجوا من ديار الشام. واستعادت بعض الأماكن فيها ما كان لها من نشاط تجاري أو غير ذلك. والقدس ليست مركزاً تجارياً، لكن استقرار الأحوال، ولو نسبياً، أدى إلى انتعاش المدينة المقدسة. فهذا ابن بطوطة يقول عن قبّة الصخرة:

«وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً، قد توافر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف. وهي قائمة على نشز في وسط المسجد، يصعد إليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرخام أيضاً، محكم الصنعة، وكذلك داخلها. وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة، ورائق الصنعة ما يعجز الواصف، وأكثر ذلك مغطى بالذهب. فهي تتلألأ نوراً، وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. وفي وسط القبّة الصخرة الكريمة، التي جاء ذكرها في الآثار، فإن النبي ﷺ عرج منها إلى السماء. وهي صخرة صماء، ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير، ارتفاعها نحو قامة أيضاً، ينزل إليها على درج. وهنالك شكل محراب. وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل، يغلطان عليها؛ أحدهما، وهو الذي يلي الصخرة، من حديد بديع الصنعة، والثاني من خشب، وفي القبّة درّقة كبيرة من حديد معلقة هنالك، والناس يزعمون أنها درقة

حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه»<sup>(١٢)</sup>.

وقد كثر الزوار الأجانب الذين أموا مدينة القدس في القرنين السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر). فمن أولئك الرحالين فابري الذي ترك لنا الكثير من مدينة القدس. فقد قال:

«بيوت المقدس مبنية بالحجارة، هذا باستثناء مساكن الفقراء التي هي من الطين. وقد رأيت فيها بيوتاً جميلة كبيرة، لكن جزءاً كبيراً من المدينة متهدم مهجور، بحيث ان جثث الحيوانات التي تتفق تبقى داخل المدينة بدل ان تطرح خارج أسوارها .. وفي المدينة نحو خمسمائة يهودي ونحو ألف نصراني من كل مذهب وقطر، وأقلهم من أتباع الكنيسة اللاتينية.

«رغم ان القدس قد تهدمت، فإنه لا يزال فيها أربع أسواق جميلة طويلة، مما لم أرَ له من قبل شيئاً. كلها مسقوفة بالقباب، وتحوي جميع أنواع المتاجر. وهذه الأسواق الأربع هي، سوق التجار وسوق العطارين وسوق الخضار وسوق الأطعمة المطبوخة والخبز»<sup>(١٣)</sup>.

«مستشفى القديس يوحنا ... والبناء القائم هو جزء من الأصل، ويقوم فيه عدد من الرهبان ... وتوزع الحجاج في المكان ... فذهبوا مع (الترجمان المساعد) ليقوموا في بيته. اما في زيارتي الأولى للقدس فلم نقم في مستشفى القديس يوحنا، بل انني لم أره، إذ أقمنا في بيت كبير يقع في حي آخر. وما كاد الحجاج يستقرّون في أماكنهم حتى جاءهم الباعة من المسلمين والنصارى واليهود يحملون الخبز والماء والطعام والفواكه فابتعنا وأكلنا ... والآن جاءنا اثنان من الاخوان، موفدين من قبل رئيس جبل صهيون، واقتادا جميع الرهبان منا الى دير صهيون لتقييم هناك. لأن هذه هي العادة المتبعة. وكنت بطبيعة الحال في من ذهب»<sup>(١٤)</sup>.

وأسواق القدس تحدث عنها فابري فقال: «زرت صباح اليوم ٢٨ تموز (يوليو) أسواق المدينة وشارع الطبّاخين. حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشتري من المطابخ العديدة، ذلك لأن القوم لا يطبخون في بيوتهم، كما نفعل نحن في بلادنا. بل انهم يبتاعون طعامهم جاهزاً من هذه المطابخ. والطهاة ماهرون نظيفون. ولا ترى امرأة قرب الموقد. لأن المسلمين يكرهون الطعام الذي تطهاه المرأة كرههم للسم. ومن ثمة ليس في الشرق كله امرأة تستطيع ان تصنع كعكة.

«وحيث يكون الحجاج يتجمع حولهم التجار. فلما كنا في كنيسة القيامة جاء تجار من النصارى ... الشرقيين ... ودخلوا معنا. فلما أقفلت الابواب عمد بعضنا الى المساومة. وقضوا في ذلك شطراً من الليل إن لم يكن الليل كله ... ولم تقتصر مشترياتهم ومساومتهم على المسابح والحجارة الكريمة لكنها تعدتْها الى الدمشقي والحريز ... أعرف بعض النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة في اسواق بلادهم،

لأن ذلك دون مكانتهم الاجتماعية، لم يتخرجوا عن الشراء في مثل هذا المكان المقدس ... ولم تكن غاية الجميع أن يبتاعوا أشياء لأنفسهم، ولكنهم كانوا يفكرون بنقلها الى بلادهم للاتجار بها والربح. وقد اشترك بعض رجال الدين في أعمال البيع والشراء هذه»<sup>(١٥)</sup>.

ولعلّ من خير ما يمكن ان يردد لمناسبة التحدث عن القدس المقطوعة التالية من قصيدة عصماء لشوقي. قال:

ولد الرفق يوم مولد عيسى	والمروءات والهدى والحياء
وازدهى الكون بالوليد وضاءت	بسناه من الثرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما يسري من	الفجر في الوجود الضياء
تملاً الأرض والعوالم نوراً	فالثرى مائج بها وضّاء
لا وعيد، لا صولة، لا انتقام	لا حسام، لا غزوة، لا دمء
ملك جاور التراب فلما	ملّ نابت عن التراب السماء
وأطاعته في الإله شيوخ	خشع خضع له ضعفاء.

## الهوامش

- (١) المقدسي، ص ١٦٥-١٦٦.
- (٢) نفس المكان، ص ١٦٦-١٦٧.
- (٣) شيخو، لويس: مجاني الادب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٨٢، ج ٢، رقم ٢٠٨.
- (٤) زيادة، نقولا: رواد الشرق العربي في القرون الوسطى، القاهرة، المقتطف، ١٩٤٣، ص ٥٤.
- (٥) العارف، عارف: تاريخ القدس، القدس، ١٩٥١، ص ٤٦-٤٧.
- (٦) المقدسي، ص ١٧٠.
- (٧) خسرو، نصري: سفرنامه، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥، ص ١٩-٢٠.
- (٨) نفس المكان، ص ٢٠.
- (٩) نفس المكان، ص ٢٩-٣٠.
- (١٠) زيادة، مصطفى: حملة لويس التاسع على مصر، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٣.
- (١١) نفس المكان، ص ٦٣-٧٥.
- (١٢) ابن بطوطة، ج ١، ص ١٢٢-١٢٣.
- (١٣) رواد الشرق العربي، ص ١٩٨.
- (١٤) نفس المكان، ص ١٩٨-١٩٩.
- (١٥) نفس المكان، ص ١٩٩-٢٠٠.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة ، اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت ، الجزء الثالث عشر - مدن عربية